من عساه سنوهي

أ.د. أحمد عبد الحميد يوسف*

تلك قصة [1] حظيت بما لا شك أن يكون إجماعا بين الدارسين والمختصين في حضارة مصر وتاريخها القديم علي ما أحلت من منزل رفيع من الأدب المصري عامة . وأدب الدولة الوسطي خاصة وذلك فضلا عما توحي به من لمحات تاريخية عن مطالع الأسرة الثانية عشر وما كان لها من وشائج مع ما يكتنف مصر من أقاليم في شرق وغرب . إذ تجري علي لسان من سمي – فيما شاء كاتبها – سنوهة ، وكان فيما روي عن نفسه في صدر قصته – مع تحفظه – " سليل الحسب والنسب " ، وخادم الحريم الملكي وملازم الأميرة زوج الملك المبجلة خنمت ايه [2] بنت أمنمحات مؤسس الأسرة الثانية عشرة . ومع ذلك فلم يفتأ علي مدى القصة – ما سنح السياق – يلمح بمنزلته في مصر وخارج مصر ، وباتساع شهرته ، وحسن سمعته ويمن نقيبته .

أما محور القصة وعقدتها فإنما تبدأ بموت الملك رأس الأسرة أو بمقتلة علي الأصح وإن لم يصرح بذلك علي الأسلوب المصري القديم . وكان سنوهه حينئذ الجيش المصري الذي دفع به جلالته بقيادة ابنه وولى عهدة سنوسرت لقتال التمحو والتحنو غربي مصر، حيث وفق الجيش المصري في حملته وتهيأ للعودة بما أحرز من مغانم وأسلاب ، وقد أسهم في الحملة كذلك رهط من بني أمنمحات الأول من أخوة الأمير القائد .

كان موت الملك في ذلك الميقات مفاجأة علي غير حسبان ولذلك حرص أهل القصر وشيعته ما استطاعوا – مع كتمان الخبر وملابساته وحصره في أضيق نطاق علي سرعة استدعاء ولي العهد متعجلين حتى تستقر الأمور بتوليه مكان أبيه حيث يتصدى – لما هو مفهوم من السياق بل وصرح به سنوهه – من توابع ذلك الحدث الخطير . وقد عمد الرسل ما أن بلغوا الأمير بليل إلي الانفراد به حرصاً علي حصر السر ، وكذلك انفراد من الرسل من أبلغ أخوته واحداً واحداً تجنباً لما قد يلفت الأنظار من شبهة التجمهر والاجتماع . علي حين استثنى سنوهه وهو من هو ولي العهد وزوجة ولي العهد ابنة الملك فلم يبلغ بشئ ، بل استبعد وأخفي عنه ، ولكنه علي كل حال تمكن من استراق السمع والتحقق من فحوى الحوار .

ولم يذكر سنوهه علي امتداد القصة ما سمع ،وإن كنى عنه بما صور من فزعة وانهياره وما اتخذ من قرار الفرار ، موقناً بما سوف يندلع في العاصمة من اضطراب لن يعيش من بعده أي أنة لا محالة مقتول ، فكان أن أسلم ساقية للريح ، معولاً علي مغادرة مصر بأسرها مجتازاً سيناء وحائط الحاكم بما فيه من قلاع عليها الرماة من الرقباء .

وكان في سيناء إذ تعرف عليه بحكم ما يتمتع به في مصر من شهرة شيخ قبيلة مرموقة هناك فأنقذه من الجوع والعطش وأحسن وفادته ، وإن لم يكن من سبيل إلي بقائه في نطاق السلطة المصرية التي لا محالة تدركه عنده وتقبض علية ، ومن ثم ظلت تسلمه – كما قال – أرض إلي أرض حتى بلغ جبيل فأقام في رحابها عاماً ونصف العام ، حتى دعاه حاكم رتنو العليا، فأكرم وفادته ورحب به وذلك بحكم معرفته قدره في مصر ومنزلته من ملكها ، لاجئاً في كنفه وضيقاً علية ثم مستفسراً عما آل به إلي الفرار . غير أن سنوهة لم يشأ أن يبسط الأمر

* أستاذ الحضارة المصرية القديمة ــ كلية اللغة العربية ــ جامعة الأزهر

[1] Hierratische Papyrus Berlin , p.3-14, Taf. 1-15.

[2] Gauthier , Le Livre des Rois , I, p.283.

ويشرح كل شئ وإن انتهز عندئذ فرصة إبراء نفسه مما اتهم به بإعلان إخلاصه للملك الجديد ، حريصاً علي الإطناب في مدحه والاعتراف بحقه الأصيل في العرش منذ ولد ، وكفاءته في حكم مصر وإخلاصه لها ، وما يتمتع به – بثقة أبيه وحسن قيادته ، مع دعوته حاكم رتنو العليا إلي الاعتراف بسلطانه وما سوف يلقي من فضل سنوسرت لقاء ولائه وإخلاصه له . وفي ذلك يتجلي من هذا الحوار طابع سياسي يدل علي امتداد سلطان مصر أو منزلتها علي سوريا وحاجة الملك الجديد إلي الاعتراف به والإخلاص له .

وكان ننشي بن عامو حاكم رتنو العليا وقد أمن علي قول سنوهي بقدر ذلك كله نحو مصر وملكها كما يعلم قدر سنوهة ويعلم رغم تلك السحابة التي ألمت به شرف نسبة وارتفاع منزلته من مليكه وبنيه وإخوته وكبار رجال القصر ، لذلك بالغ في إكرامه فجعله عن تقدير لكفاءته السياسية وقدرته العسكرية حاكماً علي بعض تخوم بلاده كما زوجة – وما كان ليزوج هارباً لاجئاً من شذاذ الآفاق – من كبرى بناته، ولعلة تطلع بذلك إلي حسن علاقة يوثقها بنسب سياسي يعلم مداه بينه وبين ملك مصر بفضل سنوهة حيث استنبط من الشواهد توقع براءته من مظنة أدت به إلي الفرار .

وكان أن عاش سنوهة حيث استقر به المقام في منفاه عزيزاً مكيناً في رغد من العيش . ومع ذلك فما كان ما غمرة من نعمة وعزة جانب ليلهيه علي طول المدى عن وطنه ومسقط رأسه ومرباة ، وإذا به يرسل الدعاء إلي ربه أن يتفضل عليه برؤية المكان الذي يقيم فؤاده فيه وأن يدفن جثمانه في الأرض التي ولد فيها وأن يرضى عنه الملك وأن يسعد بمحيا سيدة البلاد التي في قصره وأن يأنس بأحاديث أبنائها : تري ترى من عساه منهم ومن عساهم منه أبناؤها هؤلاء ؟!!.

وتتصل بالملك والقصر أخبار سنوهة بحكم ما كان متاحاً بفضل ما كان من قوافل تمر به ويستضيفها بين مصر وسوريا (رتنو) فيكتب الملك إليه يدعوه إلي وطنه ، معلناً براءته ،وأن فراره إنما كان عن وهم منة نبع – بغير مسوغ من قلبه ، ويحدثه عن سيدة البلاد التي اشتاق إلي تحيتها وإلي أحاديث بنيها ويطمئنه عليها فيقول الملك مشيراً إليها في رسالته : أن سماءك تلك التي في القصر ما زالت علي قيد الحياة في صحة إلي الآن ،متوجاً رأسها بملك البلاد في أبنائها ...ثم يقول " عد إلي مصر وانظر إلي المقر الذي عشت فيه ..."

تري من تلك التي عصف بها الحنين بسنوهة إليها وكانت محور رسالة الملك يطمئنه عليها ويصفها بأنها " سماؤه " وذلك في تشبيه رائع وكناية ذكية نابعة عن دين وايمان ، فلقد شبهها بربة السماء" نوت " أم الآلهة أوسير وإيسة وست وبنت حت . إذن فلقد كانت هي الملكة الأم زوجة أمنمحات الأول، وهي أم سنوسرت ، وهي أم سنوهة جميعاً ، فهما إذن أخوان ...

وعاد سنوهة إلي مصر حيث استقبل في القصر استقبالاً غمرته حرارة المودة وغلبت عليه وشيجة الرحم وأواصر القربى ، فأقبل عليه – مع جدتهم – الأمراء والأميرات من بني أخيه سنوسرت ،وقد أدهشتهم ما طرأ عليه من فعل الزمان من تغير الهيئة وتبدل الصورة ... وبعد ، فمن عساه سنوهة ،بل من هو سنوهة ؟!إذن فلنستأنف الحديث كما بدأنا أول قول نعيده

كان أمنمحات رأس الأسرة الثانية عشرة قبل اجتيازه العرش من أساطين الأسرة الحادية عشرة ومن كبار رجال آخر ملوكها منتوحتب نب تاوي رع ، وكان له من جهوده يومئذ ما تحدث به ورواه في سيرته.ولكنة تطلع إلي العرش والاستيلاء عليه فكان له ما أراد .

علي أن أمنمحات وقد كان معروفاً للناس ولم يكن بذي نسب ملكي أو شبة ملكي يستند إليه ويؤهله في عيون الرعية كما اعتادت الرعية قد رأي من الحكمة الاعتراف بنسبه ،وأن عمد متوسلاً بالعقائد والدين إلي الإيحاء بأنه إنما يتولى بإرادة الأرباب ، وذلك فيما دسه من نبوءة

أجريت علي لسان كاهن قيل أنة من أيام سنفرو سمي نفرتي[3]، معلناً أن العرش سوف يؤول إلي ابن الإنسان أو إلي صالح ابن ناس كما نقول اليوم وأنه ابن امرأة من نساء النوبة ، ولكنه عمد كذلك إلي الإغراء بالوعود بأنه سوف يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

غير أن ذلك لم يحل دون معارضة تجابهه وصراع اضطر إلية ممن رفضوا سلطانة وتمسكوا بسلالة من حكم مصر من ملوك الأسرة الحادية عشر ، ولذلك فلم يتطامن له العرش إلا بعد صراع أعانه فيه حكام بني حسن خنوم حتب الأول في معركة استعان فيها بعشرين سفينة كبرى من خشب الأرز[4]. ومع ذلك فلم يخل عهده من تمرد وصراع مع من حرصوا علي إزاحته لاسترداد العرش للأسرة المغلوبة ولو بالمؤامرة علي حياته ، وآية ذلك ما عمد إليه – مع تواصل التهديد – إلي إشراك ابنه سنوسرت في الحكم في العام العشرين من عهده[5]. كما لم يغفل شأن من كان في مثل موقعة تلمس ما يؤيد حكمه ، فضلاً عن النبوءات ، مما درج الشعب عليه من أواصر النسب وتواصل الإرث أو يبدو كتواصل الإرث، ولذلك فالراجح أنه سلك هذا السبيل بالزواج من أرملة سلفة " ايتاتتن " وضم ابنهما إليه ، فنشأ " سنوهة بن منتوحتب نب تاوي رع " في رعايته ورقابته . ثم ما أسرع ما أصبح سنوهة هذا أخا لولي عهده سنوسرت وأبنائه وبناته عامة .

علي أن فلول الأسرة الحادية عشرة وأنصارها لم يكونوا علي غير علم بموقع سنوهة ومنزلته وسمعته، وأنه المرشح للملك إن امتدت دولتها ، وقدروا أنهم بجهادهم في سبيل أملهم في استرداد دولتهم مع إعلان اسم سنوهة ملكاً بالغون ما يستهدفون ، وأن الأنصار من الرعية وجمع من أهل الحل والعقد وبعض حكام الأقاليم مائلون إليهم سواء علم سنوهة بذلك التدبير أم لم يعلم . وأكبر الظن أنه لم يكن يعلم . وكذلك فلم يكن من شك إذا تسربت أنباء المؤامرة أن تتجه إليه الأنظار بالشك والاتهام.

وكان ذلك ما بدر من سمار القصر ما إن قتل أمنمحات فأرسلوا بالخبر إلي سنوسرت واخوته من دون سنوهة الذي علم باستراق السمع، فكان الفرار وكانت تلك القصة التي تعد من أروع آيات الأدب المصري القديم.

---

[3] **Hichtheim , M ., Ancient Egyption hiterature , (California 1975) Vol. P.139.**

[4] **Breasted , Anc . Records 463 (Bar).**

[5] **Bar 474 ., cf Lichtheim , op . cit 135 .**